
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية



الغزوة التركية لإفريقيا

عبد الرحمن علي*

ملخص

قام رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان بزيارة الصومال في منتصف شهر أغسطس الماضي (2011) لرفع مستوى الوعي بشأن المجاعة المدمرة التي سببت مصرع عشرات الآلاف وتشريد حوالي مليون شخص. لكن هذه الزيارة تتضمن معان أوسع بالنسبة لتركيا باعتبارها قوة صاعدة تتاخم الشرق والغرب، فأنقرة تحاول أن تعلن توجهها الفريد لسياستها الخارجية باعتماد مكانتها الأخلاقية، وليس نفوذها العسكري أو الاقتصادي. الأهم من ذلك أن تركيا كانت ترسي الأساس لغزوها لأفريقيا، تلك القارة التي ظلت– إلى حد كبير–على حالها، تعاني التخلف. وفي حين تعيد أنقرة توجيه سياساتها الخارجية والتجارية، فإنها تمد جذورا في أفريقيا بأن تجعل المساعدات الإنسانية نقطة الاتصال الأولى بها. وبينما تتخذ القوى التقليدية (الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والصين، والهند) موقف الانتظار والترقب حيال أفريقيا، خاصة فيما يتعلق بتحقيق الاستقرار، يبدو أن تركيا تستثمر في طور تحقيق الاستقرار، وتزرع بذور ارتباط طويل الأجل.

عندما قام رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان بزيارته التاريخية إلى الصومال في منتصف أغسطس الماضي لرفع مستوى الوعي العالمي بشأن المجاعة المدمرة هناك؛ أسر الشعب الصومالي بإظهاره الرحمة، بل ووجه إيضا إنذارا للقوى العالمية التقليدية مفاده: أن تركيا قامت بغزوة غير عادية في أفريقيا، باعتماد سلطتها الأخلاقية وليس نفوذها العسكري أو الاقتصادي.

باعتبارها قوة صاعدة تتاخم الشرق والغرب، عمدت تركيا إلى شن غزواتها إلى أفريقيا من خلال تعاملها مع المآسي المفجعة مثل مجاعة القرن الأفريقي التي أودت بحياة عشرات الآلاف بمختلف أنحاء المنطقة. في أفريقيا تتدافع القوى العالمية التقليدية، وعلى رأسها الولايات المتحدة وأوروبا والصين والهند متنافسة من أجل الهيمنة العسكرية

* abdi.aynte@gmail.com

(الولايات المتحدة وأوروبا)، وعقد صفقات النفط والبنية التحتية (الصين والهند). في المقابل، تقترب تركيا من المنطقة «بسجل ناصع مع اتباع نهج إنساني» على حد قول الرئيس التركي عبد الله غول خلال زيارة قام بها إلى أفريقيا في العام الماضي.[1]

وباستخدامه عبارة «السجل الناصع»، يحتمل أن غول كان يلمح إلى الحقيقة المهمة التي مفادها أن تركيا لم تكن يوما قوة استعمارية في المنطقة كما الأوروبيين الذين ينظر إليهم في أفريقيا على نطاق واسع كجشعين وانتهازيين. وباستخدامه عبارة «النهج الإنساني»، كان الرئيس غول يشير بدبلوماسية إلى سياسة التجارة الخارجية للصين، والمعروف عنها أنها تغض الطرف عن شركائها التجاريين من

تقترب تركيا من المنطقة بسجل ناصع مع اتباع نهج إنساني على حد قول الرئيس التركي عبد الله غول خلال زيارة قام بها إلى أفريقيا في العام الماضي.

الدول القمعية، طالما أن هذه الدول تصدر للصين النفط والمواد الخام، فهي تضمن دعم بكين في المحافل الدولية خاصة في مجلس الأمن الدولي بالأمم المتحدة. وخلافا لسياسة الولايات المتحدة التي تحركها الاعتبارات الأمنية، يبدو أن تركيا تتبع نهجا غير تقليدي لمشاريعها حديثة الاكتشاف في أفريقيا.

زيارة أردوغان للصومال

تجمدت الصومال في نواح كثيرة في عهد ما قبل الحرب الأهلية: فتقريبا يُعد كل ما فعله أردوغان أو تعهد بأن يفعله، هو أولى الخطوات التي اتخذت منذ عام 1991، عندما اندلع الصراع الذي طال أمده 20 عاما، واستمر إلى الآن، متخذا العديد من المنعطفات والتحولات. في عام 1991، أطاحت الجماعات المتمردة القبائلية بالجنرال محمد سياد بري الشيوعي الذي تحول إلى موالاة الغرب والذي حكم الصومال بقبضة من حديد منذ عام 1969. وبمجرد أن أطاح به الثوار، وجهوا أسلحتهم إلى بعضهم البعض في حرب أهلية دامية، أدت إلى مجاعة شديدة في 1992. في ذلك العام، بدأت «عملية استعادة الأمل» بقيادة الولايات المتحدة، حيث تدخل نحو 30 ألف جندي من 30 دولة– بما فيها تركيا– لإطعام ضحايا المجاعة. انتهت هذه العملية فيما يعرف الآن بحادثة Black Hawk Down، حيث قتل 18 جنديا أمريكيا ومئات الصوماليين في اشتباكات بينهم. بعد انسحاب القوات الأجنبية، قطعت بعض القبائل علاقتها ببقية البلاد وأعلنت الحكم الذاتي أو شبه الحكم الذاتي في عدة مناطق. تلا ذلك سنوات من العنف تحت سيادة القادة العسكريين، حتى ظهرت حركة الشباب المجاهدين، وهي ميليشيا إسلامية

(1) "Ottoman Dreaming" الإيكونوميست، مايو 2010.

متشددة تدين بالولاء لتنظيم القاعدة. تسيطر هذه الحركة التي تصفها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بالمنظمة الإرهابية على ما يقرب من نصف الصومال، وتقاتل حكومة معترف بها عالميا، لكنها ضعيفة، تسيطر على العاصمة مقديشو وعدد قليل من المدن، وتتمسك بالسلطة بقبضة مرتعشة بدعم من 6 آلاف جندي من قوات حفظ السلام التابعة للإتحاد الأفريقي.

في شهر أغسطس الماضي، أصبح أردوغان أول زعيم أجنبي منذ عقدين من الزمان يجرؤ على زيارة مقديشو، التي يمكن القول بأنها أكثر المدن خطورة في العالم.

تركت صور أردوغان وزوجته مغرورقة العينين بالدموع وهما يحملان الأطفال الصوماليين الذين يعانون سوء التغذية أثرا عميقا في نفوس الشعب الصومالي.

في شهر أغسطس الماضي، أصبح أردوغان أول زعيم أجنبي منذ عقدين من الزمان يجرؤ على زيارة مقديشو، التي يمكن القول بأنها أكثر المدن خطورة في العالم. غامر أردوغان –بصحبة زوجته أمينة، وابنتيها، وخمسة وزراء، وحمولة طائرة من المساعدات الغذائية والطبية – بزيارة المعسكرات التي أقامتها المنظمات الخيرية التركية للآلاف من ضحايا المجاعة. تركت صور أردوغان وزوجته مغرورقة العينين بالدموع وهما يحملان الأطفال الصوماليين الذين يعانون سوء التغذية أثرا عميقا في نفوس الشعب الصومالي. بعد عشرين عاما من الحرب الأهلية، وحالة اللادولة، والإرهاب، ويزيدها الجفاف والمجاعات سوءا، شعر الصوماليون الذين تجاهلهم بقية العالم أن هناك زعيما بعيدا كان رحيما بما فيه الكفاية، ليكرس وقتا لمحنتهم وسط جدول أعماله المكتظ.

كانت زيارة استثنائية حقا في الصومال: حيث مد بساط أحمر لأردوغان –للمرة الأولى منذ 20 عاما– وقامت فرقة للشرطة الصومالية بواجب عزف النشيد الوطني التركي. في الأيام التي سبقت زيارته، تم تعليق صور أردوغان إلى جانب صور الرئيس الصومالي في أنحاء مقديشيو على المباني وفي الشوارع المتهدمة. كانت الأعلام التركية في شوارع العاصمة أكثر من الأعلام الصومالية. وأذيعت الموسيقى التركية في المحطات الإذاعية المحلية، كما صرحت المستشفيات أنه منذ إعلان زيارة أردوغان للصومال صار اسم "اسطنبول" الاسم الأكثر شعبية للمواليد البنات. ببساطة، رفعت زيارة أردوغان معنويات الصوماليين كما لم يفعل أي زعيم قبله.

إن ما يجعل لزيارة أردوغان للصومال أهمية خاصة أنه استقل سيارة عبر المدينة – أو ما تبقى منها– وبدا هادئا خلالها بصورة ملحوظة؛ خلافا لزعماء دول الجوار الذين يقومون بزيارات خاطفة روتينية للصومال، تقتصر عادة على القواعد العسكرية. وعلاوة على هذا، فإن دول الجوار طرف في الصراع

الذي طال أمده في الصومال: فهي تقوم بتسليح الميليشيات والقبائل المتناحرة، كما أنها طالما نسفت الجهود الحقيقية لإحياء الصومال وإعادتها مرة أخرى إلى المجتمع الدولي. بينما تركيا، من الجهة الأخرى، ليست كذلك.

تنطبق نظرية «السجل الناصع» للرئيس غول من حيث الحياد السياسي أيضا: فقد رحب الصوماليون من جميع الاتجاهات السياسية بزيارة أردوغان باعتبارها جهد حقيقي تبذله دولة إسلامية شقيقة لمساعدة ضحايا المجاعة. فبخلاف الدول المجاورة، ليس لتركيا مصلحة مكتسبة في السياسات الصومالية المحلية المعقدة. كل ما كانت أنقرة تريد أن تراه هو نهاية لهذه الكارثة الإنسانية المفجعة في البلاد. خلال زيارته، صرح أردوغان قائلا أنه من العار على العالم أن يموت الآلاف من الناس جوعا في القرن الحادي والعشرين. ومكررا التأكيد على النهج التركي الفريد في السياسة الخارجية، قال أردوغان أن العالم، وبخاصة تركيا، عليه «مسئولية أخلاقية» تجاه معالجة الأزمة الإنسانية. وهو ما قام به بإخلاص.

رحب الصوماليون من جميع الاتجاهات السياسية بزيارة أردوغان باعتبارها جهد حقيقي تبذله دولة إسلامية شقيقة لمساعدة ضحايا المجاعة. فبخلاف الدول المجاورة، ليس لتركيا مصلحة مكتسبة في السياسات الصومالية المحلية المعقدة.

عندما غادر أردوغان العاصمة الصومالية مقديشو في يوم الجمعة التاريخي هذا من شهر أغسطس، ترك وراءه جيشا من العاملين في المنظمات الخيرية التركية قائمين على المعسكرات والعيادات المتنقلة التي بناها الأتراك في جميع أنحاء المدينة. أخرج أحد الفنادق الكبرى في مقديشو ضيوفه الصوماليين لإفساح المكان للعشرات من العاملين بهيئات الإغاثة التركية. الأهم من ذلك أن أردوغان أحضر معه سفير تركيا المعين حديثا في الصومال، والذي قدم أوراق اعتماده في نفس اليوم. وبرغم تعرض السفارة التركية في مقديشو للتدمير، مثل معظم السفارات الأخرى، إلا أن أردوغان أصدر تعليماته للسفير الجديد بالعمل من حجرته في الفندق أو من أي مكتب آخر يمكن أن يجده، إلى أن تعيد أنقرة بناء منشآتها في العاصمة الصومالية. ومن ثم فإن تركيا بهذا ترسخ الشعور بالضرورة الملحة في نفوس ممثليها في مقديشو.

على رأس كل هذا، أعلن أردوغان مشاريع إعادة إعمار كبرى في الصومال. حيث تخطط تركيا لإعادة بناء الطريق الرئيسي الذي يربط مطار مقديشو ببقية المدينة. (وتعهدت الحكومة الصومالية بتسميته "Jidka Turkiga"). كما قامت أنقرة أيضا ببناء العديد من المستشفيات والمدارس. لكن ربما كان الإعلان الأكثر أهمية هو أن 500 من الطلبة الصوماليين سيلتحقون بالجامعات التركية بمنح دراسية برعاية الحكومة. وفي سبتمبر الماضي، قام وفد

من 200 مسئول حكومي ورجال الأعمال الأتراك بما فيهم رئيس شركة الخطوط الجوية التركية والتي تشهد نموا سريعا، بالتوجه إلى مقديشو بناء على تعليمات باستكشاف سبل تنفيذ التعهدات التي قطعها أردوغان.

وقال رئيس الخطوط الجوية التركية أنه سيدرس بجدية إطلاق رحلات منتظمة من مقديشو، والتي -حال إطلاقها- ستجعل شركة النقل الجوي الوطنية التركية أول من يفعل هذا منذ عقدين. وعلى كل فإن الخطوط الجوية التركية تقوم بتسيير رحلات غير منتظمة إلى مقديشو. في يومين متتاليين في أوائل أكتوبر، هبطت طائرات الخطوط الجوية التركية إلى مقديشو لإقامة جسر جوي لضحايا تفجير انتحاري وقع في الرابع من أكتوبر، وللطلاب الذين سيدرسون في تركيا. كانت الحكومة الصومالية الضعيفة المحرجة عديمة الكفاءة قد أصابتها الرهبة ليس فقط بسبب العدد الكبير من أعضاء الوفد والذي لم يكن متوقعا من قبل، وإنما أيضا بسبب الطريقة اللطيفة التي قدموا بها عروضهم. كانت الجمعيات الخيرية التركية منتشرة في كل زاوية في مقديشو، على عكس الوكالات الغربية، وكان عمال الإغاثة الأتراك يسافرون بثقة وعادة بأقل قدر من الترتيبات الأمنية أو بدونها

عندما غادر أردوغان العاصمة الصومالية مقديشو في يوم الجمعة التاريخي هذا من شهر أغسطس، ترك وراءه جيشا من العاملين في المنظمات الخيرية التركية قائمين على المعسكرات والعيادات المتنقلة التي بناها الأتراك في جميع أنحاء المدينة.

إثارة جدل الهوية

لعشرات السنوات، كان الجدل يدور في الصومال حول الجذور والهوية الحقيقية للشعب الصومالي. كانت الأكثرية تقول بأن الصوماليين هم من العرب السود، مثلهم مثل السودانيين. في النهاية، الصومال عضو في الجامعة العربية وجزء كبير من المجتمع فيها يتحدث أو على الأقل يفهم اللغة العربية. إلا أن شريحة متنامية من المجتمع الصومالي تجاهر برفض هذا الإدعاء، وترفض معه الحجة التي يقوم عليها من أن الصومالين يجب أن تعود جذورهم العرقية إلى العرب، أو الأفارقة، إلخ. أعادت زيارة أردوغان إثارة هذا النقاش بطريقة غير عادية تماما: حيث استفادت القوى المعادية للعرب من زيارته التاريخية لتقول بأن العرب «الأشقاء» السابقين للصومال، كانوا غائبين بوضوح عن محاولة رفع المعاناة الرهيبة التي يمر بها الشعب الصومالي. يقول هذا الفريق أن العرب الذين اتضح أنهم «أشقاء» قساة القلب، قد قطعوا صلة الرحم الهشة التي يفترض أنها تربطهم بالصوماليين. وأنه إذا ما أصابت اليمن مجاعة أو أي كارثة أخرى بهذا الحجم، فإن العرب سيتوافدون أفواجا إلى هناك. لقد تطلب الأمر وجود زعيم غير عربي— بل تركي من بين جميع الجنسيات— لجذب أنظار العالم، في حين ينشغل الزعماء

العرب بترسيخ سلطتهم لاستباق أي ثورات، قد تقوم على غرار الثورة المصرية.

تقول القوي المعادية للعرب، وحجتهم مقنعة، أن زيارة أردوغان تؤكد على فكرة أن أخوة العرق قد استبدلت بأخوة الدين. وأن المسلمين هم الأخوة الحقيقيون للشعب الصومالي في أوقات المصائب. ولنكن واضحين، فإن هذا الفريق— أو أي فريق آخر فيما يتعلق بهذا الصدد—لا يدعي بأن الصوماليين أتراك بطريقة ما. فهم يؤكدون بإصرار أن الصومالين مسلمون أولا، وأفارقة ثانيا. على كل، وصل الإسلام إلى الصومال قبل أن يصل إلى المدينة المنورة، من خلال هجرة الصحابة من مكة للحبشة في عام 613م. أيا كان الأمر، ربما لا تحسم زيارة أردوغان للصومال السؤال القديم قدم الدهر حول الهوية الصومالية، استنادا إلى مسح تم من غير ضوابط علمية لمناقشات وسائل الإعلام الصومالية، فإن الكثير ممن كانوا مقتنعين بفكرة أنه لدى الصوماليين أصول عربية يعيدون الآن تقييم رأيهم. دارت مناقشات مماثلة في التسعينيات من القرن العشرين، عندما فر الآلاف من اللاجئين الصوماليين من الحرب الأهلية المدمرة، وانتهي بهم المطاف في دول الخليج التي قامت بترحيلهم مرة أخرى إلى المنطقة التي تدور فيها رحى الحرب، في حين أن أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا وأستراليا أعادت توطين الآلاف من اللاجئين الصوماليين ومنحتهم الجنسية.

تأثير المحاكاة

تسببت زيارة أردوغان للصومال في إثارة دهشة الكثيرين، ثم أدت إلى موجة من الزيارات التي قام بها كبار الشخصيات العالمية. بعد وقت قصير من مغادرته الصومال، أرسلت إيران وزير خارجيتها إلى مقديشو، كما أرسلت العديد من الدول الأوروبية وزراءها إلى المدينة للمرة الأولى منذ 20 عاما. ربما كان أكثر هذا الزيارات إثارة للإهتمام هي تلك التي قام بها كبار ممثلي الأمم المتحدة والإتحاد الأفريقي والذين كانوا في السابق يتجنبون مقديشو لأن تصنيفها الأمني وفقا للأمم المتحدة يضع المدينة في أدنى ترتيب (والأكثر خطورة)، وهو ما دفع كبار موظفي الأمم المتحدة لتجنبها تماما. ولكن بمجرد أن خطا أردوغان إلى المدينة بأسلوبه المتميز، ولدهشة الكثيرين، بترتيبات أمنية متواضعة إلى حد ما، لم تعد مقديشو منطقة محظورة بالنسبة لكبار رجال الأعمال مثل الأمير الوليد بن طلال، الملياردير السعودي الذي تعهد— بعد زيارة مخيم لضحايا المجاعة— بتقديم مساعدات غذائية وطبية بملايين الدولارات.

أثار استياء العديد من الشخصيات الأجنبية التي زارت مقديشو بعد أردوغان، أن البساط الأحمر لم يمتد في استقبالهم، وبالتأكيد لم توجد أي علامة من علامات للترحيب البالغ الحار. في الواقع، كان بعض القادة الصوماليين يسافرون خارج البلاد عندما كان بعض الوزراء

الأوروبيين يزورون مقديشو- وهذه قفزة هائلة عن عصر ما قبل أردوغان، كما يشار إليها الآن بسخرية، عندما كان الرئيس الصومالي ورئيس وزراءه يجتمعون بصورة روتينية مع صغار المسئولين المحرجين الذين يطلبون لقاءهما في سرية تامة في مطار مقديشو الخاضع لحراسة مشددة بسبب المخاوف الأمنية. لقد ساعد أردوغان بصفة خاصة القادة الصوماليين على إدراك وتقييم قيمة مناصبهم.

تسييس المساعدات الإنسانية

في حين أن الشعب الصومالي لاقى بالترحيب الكبير المشاركة التركية وما أثارته من وعي عالمي بكارثة المجاعة، إلا أن القوى التقليدية العالمية (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والاتحاد الأفريقي ومجموعة كبيرة من المنظمات الدولية بقيادة الأمم المتحدة) لاقتها بعدم اكتراث، بل وحتى بالانزعاج. هؤلاء المتآمرون الذين يصفون تركيا بأنها «لاعب غير تقليدي» في الصومال، والذين فرضوا عمليا كل ما أرادوا أن يحدث للصومال لمدة 20 عاما واصلوا الإزعاج، بل وحتى المشاكسة. حيث انتقد مسئول بارز في الاتحاد الأوروبي في نيروبي تركيا واصفا إياها بأنها «وافد ساذج جديد على الصومال، يقدم الكثير من العاطفة والقليل من المادة».[1] إن سماسرة السلطة في نيروبي يعبرون عن تعاستهم لأن تركيا البعيدة والتي هي فعلا وافد جديد إلى الشأن الصومالي، سوف تحدث ضجة وتخطف منهم الأضواء. وهم يرون أنه -عندما ينقشع الغبار- سيتبين أن تدخل تركيا في الصومال ليس أكثر من حيلة تمت مرة واحدة، وتهدف إلى تحويل الانتباه عن رد فعل أنقرة المتضارب والمتردد أحيانا حيال الربيع العربي.

إن من يطلق عليهم «ممثلو المجتمع الدولي» في نيروبي اتهموا الحكومة التركية بتقديم المساعدات المباشرة - بما في ذلك الأموال- للحكومة الصومالية التي يعتبرونها فاسدة سيئة السمعة ولا تتمتع بالكفاءة بطبيعتها.

في حين أن الشعب الصومالي لاقى بالترحيب الكبير المشاركة التركية وما أثارته من وعي عالمي بكارثة المجاعة، إلا أن القوى التقليدية العالمية.

لاقتها بعدم اكتراث، بل وحتى بالانزعاج. هؤلاء المتآمرون الذين يصفون تركيا بأنها «لاعب غير تقليدي» في الصومال، والذين فرضوا عمليا كل ما أرادوا أن يحدث للصومال لمدة 20 عاما واصلوا الإزعاج، بل وحتى المشاكسة.

لمدة عشرين عاما، كانت هذه المجموعة والتي يمثلها في كثير من الأحيان دبلوماسيون منخفضو المستوى في نيروبي تنظم «مساعدتها» للصومال من خلال زمرة من منظمات الإغاثة

(1) حوار مع دبلوماسي غربي في نيروبي.

الدولية، وعلى رأسها: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وبرنامج الغذاء العالمي، وحفنة من المنظمات الأصغر حجما. كان حشد نيروبي هذا يسيّر سياسة الصومال وفقا لما يرضيهم، ويعتبرون أن أردوغان قوة تثير الاضطراب. وهم يحثون الحكومة التركية حاليا من وراء الكواليس على تحويل مسار برنامج المساعدات المباشرة للحكومة الصومالية والشعب الصومالي، وتوجيه هذه الأموال لتمر عبر أنظمتهم «المجربة والشفافة».

يبدو أن أنقرة حتى الآن تتجاهل هذه المجموعة الساعية لمصالحها الذاتية. وبذلك، فإن لتركيا تأثير أكبر على أرض الواقع. فمجموعة نيروبي نفسها لها سمعة سيئة ومعروفة بالتبديد والاحتيال. لقد كشف عدد من الدراسات أن نحو 70 بالمائة من

أنقرة حتى الآن تتجاهل هذه المجموعة الساعية لمصالحها الذاتية. وبذلك، فإن لتركيا تأثير أكبر على أرض الواقع. فمجموعة نيروبي نفسها لها سمعة سيئة ومعروفة بالتبديد والاحتيال.

الأموال المخصصة للصومال والتي تمر عبر الأمم المتحدة تنفق على أنماط الحياة المترفة التي يعيشها الآلاف ممن يسمون «موظفو الإغاثة» والذين يعيشون ويعملون في نيروبي. لقد ازدهرت هذه الصناعة برمتها على هامش مساعدات الأمم المتحدة، ويقول كثير من الصوماليين— ولديهم بعض الحق في هذا— أن هؤلاء الموظفين يعملون على تعميق الأزمة في الصومال ليستمروا في الكسب من ورائها. إن الوضع الراهن في الصومال: (الحروب الدائمة، والجمود السياسي، والإرهاب)، يعني تأمين وظيفة هذا الحشد. لقد قاوم أولئك الموظفون— الذين يحصلون على أجور أعلى مما يستحقون— الانتقال إلى مقديشو ومدن أخرى مرارا، ليتمكنوا من انفاق المال محليا بما يعود بالنفع على الاقتصاد الصومالي المحلي. وعلاوة على ذلك، فقد رفضوا تقديم المساعدات للمناطق التي تسيطر عليها حركة الشباب. وبالتالي، أثرت المجاعة على هذه المناطق تأثيرا أكثر حدة منها في العاصمة التي تسيطر عليها الحكومة. لقد خرقت الهيئات الخيرية التركية هذا التابو (المحرمات)، وتقدم حاليا مساعدات هناك حاجة ماسة إليها في تلك المناطق أيضا، وخلافا للهيئات الخيرية التي مقرها في نيروبي، ليس لدى الهيئات الخيرية التركية آراء مسبقة بخصوص من ينبغي أن يتلقى المعونة وأين يتم توجيهها. في النهاية، فإن المساعدات الإنسانية من المفترض ألا تكون لها علاقة بالسياسة، وهذا هو ما تقدمه تركيا.

الغزوة التركية لأفريقيا

في حين أن القوى التقليدية على الهامش تنتظر تحقيق الاستقرار في الصومال قبل الاستثمار فيها، نجد أن تركيا تستثمر في تحقيق

الاستقرار للصومال. حيث تعيد أنقرة بناء الطرق والمدارس والمستشفيات والمطارات وتساعد أيضا في المشروعات الأخرى للبنية التحتية. وعن طريق تجاوز بيروقراطية الأمم المتحدة وتقديم المساعدات الإنسانية مباشرة للناس المحتاجين في الصومال، تضع تركيا حجر الأساس لانطلاقة غير تقليدية في أفريقيا. إنها ترسل رسائل قوية مترددة الأصداء بأن تركيا تسيّر أعمالها كما لا يفعل الآخرون. وفي حين أن المساعدات الإنسانية يمكن أن تكون نقطة الاتصال الأولية، إلا أن تركيا تبقي على الخيارات مفتوحة أمامها، وتتطلع بوضوح للفرص التجارية في أفريقيا. إن إعلان شركة الخطوط الجوية التركية إطلاق رحلات جوية من مقديشو— رغم أنها رمية بعيدة المدى كما يبدو— إلا أنها دلالة واضحة على أن تركيا تتطلع للأعمال التجارية. ففي الصومال، تريد أنقرة أن يكون لها قصب السبق. كما أن هناك أكثر من خمسة وكالات تركية للمعونة والتنمية تعمل في الصومال. يبدو أن أنقرة ستظل هناك لفترة طويلة من الزمان.

لعشرات السنوات، هيمنت الدول الغربية على النماذج التقليدية للمساعدات الإنسانية، حيث تساهم الحكومات الغربية في أحد صناديق الأمم المتحدة لبلد منكوب. إن الأمم المتحدة التي يأتي أغلبية العاملين بها من دول غربية يكون لها القول الفصل في كيفية توزيع هذه المساعدات الإنسانية في نهاية المطاف. باختصار يقوم الغرب هكذا بتسييس المساعدات الإنسانية. كثيرا ما انتابت المسلمين— سواء المانحين أو المتلقين للمساعدات—شكوك قوية حول الكيفية التي يتم بها استخدام هذه الأموال. يبدو أن تركيا تفضل تقديم المساعدة مباشرة للسكان المنكوبين مثلما حدث مع أسطول غزة الشهير ومغامرتها الجديدة في الصومال.

في حين أن المساعدات الإنسانية يمكن أن تكون نقطة الاتصال الأولية، إلا أن تركيا تبقي على الخيارات مفتوحة أمامها، وتتطلع بوضوح للفرص التجارية في أفريقيا.

تريد أنقرة أن يكون لها قصب السبق. كما أن هناك أكثر من خمسة وكالات تركية للمعونة والتنمية تعمل في الصومال. يبدو أن أنقرة ستظل هناك لفترة طويلة من الزمان.

إن نهج تركيا هو النقيض التام لنهج الولايات المتحدة القائم على الأمن، وهو أيضا يختلف كثيرا عن الأسلوب الأوروبي الذي يربط المساعدات بمطالب خاصة. وهو أيضا يختلف عن النموذج الصيني والهندي الذي مفاده: «أعطني النفط والمواد الخام، وستحصل على دعمي غير المشروط». إن للنهجين الأمريكي والأوروبي مذاق الإمبريالية والغطرسة؛ بينما أسلوب الصين والهند يتسم بالتهور ويجعلهما متواطئين في انتهاكات حقوق الإنسان.

إن نهج تركيا هو النقيض التام لنهج الولايات المتحدة القائم على الأمن، وهو أيضا يختلف كثيرا عن الأسلوب الأوروبي الذي يربط المساعدات بمطالب خاصة.

من ناحية أخرى، فإن النموذج التركي هو نموذج رائد وسطي في الأساس، فهو يتجنب الميول الاستعمارية للولايات المتحدة وأوروبا، بينما يرسى معيارا «أخلاقيا» يرتكز على حماية حقوق الإنسان ومساعدة الضعفاء. فيعطي تركيا ما تحتاجه من تفويض معتمد للتعامل مع الدول الأفريقية على أساس جديد تماما. لا تزال أفريقيا إلى حد كبير على حالها وتعاني من التخلف. في الصومال كانت نقطة ولوج تركيا هي المساعدات الإنسانية، مع فكرة أن بمجرد أن تستقر الصومال، فستحتاج إلى «قوة غير تقليدية» لإعادة بنائها من الصفر، لأن القوى العالمية التقليدية، تلطخت سمعتها بسبب سنوات من التدخل السلبي، ويعتقد أن لها دوافع خفية.[1]

الأهم من ذلك أن الصومال— بمجرد تحقيق الاستقرار— يمكن أن يصبح بوابة طبيعية لولوج تركيا إلى أفريقيا. حيث تحتل الصومال واحدة من أكثر المواقع استراتيجية في العالم عند اتصال خليج عدن بالمحيط الهندي. فحوالي 30 بالمائة من تجارة العالم تمر عبر هذا الطريق. وعلاوة على هذا، يميل الصوماليون بطبعهم إلى التفكير التجاري، وبرغم الحروب التي تعطلهم، فهم أكثر تقدما بكثير في مجال التجارة من معظم الدول الأفريقية الأكثر تقدما وفعالية.

بمجرد أن ينطلق اقتصاد الصومال، ستتمكن تركيا من الاستفادة من نهجها الحذر وستتفوق على اللاعبين التقليديين في أفريقيا. ولأنها منبوذة من الاتحاد الأوروبي، تحتاج أنقرة إلى توسيع مجال وجودها في دول العالم النامي. وفي بعض النواحي، نجحت بالفعل في هذا. تسيّر الخطوط الجوية التركية الآن رحلات إلى دول أفريقية أكثر، كما افتتحت تركيا أكثر من عشرة سفارات لها في القارة الأفريقية في غضون السنوات الثلاثة الماضية. ومما عاد بالنفع على تركيا أن العديد من الدول الأفريقية ذات أغلبية مسلمة، وتفضل التبادل التجاري مع دولة إسلامية شقيقة.

يواجه رجال الأعمال الأفارقة صعوبات كثيرة في الوصول إلى الأسواق الأوروبية بسبب الإجراءات البيروقراطية الخاصة بالهجرة. إن السفارات الأوروبية في أفريقيا تواصل تخفيض عدد طلبات حصول أصحاب الأعمال التجارية الصغيرة على التأشيرة خوفا من أن يطلبوا اللجوء بأوروبا. يضيف هذا لموقف الإذلال والإمبريالية الذي يشعر به العديد من الأفارقة أنه يواجههم عند تعاملهم مع الدول الغربية. يمكن لتركيا أن توفر بوابة هامة لرجال الأعمال هؤلاء، لأنه ليس لديها مشكلة شاملة مماثلة فيما يتعلق بالهجرة.

(1) بينار أكبينار: "المساعدات التركية للصومال: نبض جديد في أفريقيا" قناة الجزيرة الإنجليزية، 2 سبتمبر، 2011.